فكرة الله في الفلسفة

النظرية الاجتماعية ترمي إلي غاية بعيدة هي أن ترجع إلي التمع وتفسر بالروح الاجتماعية جميع الظاهرات التي تحدثها إرادة الإنسان أو يراها فكرة أو يجدها ضميره وبمعنى آخر جميع مظاهر النشاط البشري بما في ذلك ما قد يعتقد أحياناً أن أصوله في السماء أو في صميم النفس الإنسانية.

وتعتبر هذه النظرية الدين ظاهرة من الظاهرات الاجتماعية مثله مثل فكرة الله، و تحاول أن تترمم خطواتا وتتبع آثارها من أول بدء الإنسان بالحياة في التمع وتساير تطورها ونموها حتى تبلغ منتهاها الذي هي عليه الآن.

وكذلك دور كيم يرى أن فكرة الله ليست فكرة بسيطة تدرك بذاتا بالبصيرة والفطرة كما يقول بعض الفلاسفة ولكنها في الواقع قمة تركيب وناية حياة متطورة، وهو يردها إلي المقدس الذي كان يعبده أجدادنا الهمج في طور من أطوار حياتم ويرى أن هذا المعبود يترجم عن روح التمع وقداسته وتشتق روحه من روحه.

فهل حقيقي أن فكرة الله ترجع إلي فكرة أبسط هي المقدس ؟ والجواب عن دور كيم بإيجاب وتؤكده عنده الأساطير فدراستها تدلنا دلالة واضحة على أن فكرة الآلة المتحققة ذاته في شخصيته أو الآلة المشخص تسبق في العقل البشري بتصور عام قوة مقدسة غير مشخصة.

وكذلك معرفة أحوال القبائل البدائية التي تناهت في بدايتها تدلنا على أن فكرة الألوهية بمعناها مفقودة بينهم فليس الذي يقدسونه كائنا أو شيئا مميزاً له خواص مقدسة ولكنه موزع بين قوى غير محدودة، غير متميزة الذات حقيقة بأن تقارن بالقوى الطبيعية. ففي بعض التمعات البدائية يسود الاعتقاد فيما يسمى بالمانا "Mana " وهي قوى خفية سرية تحمل في الأشياء والكائنات ويرجع إليها ما يتميز به الشئ من قوة أو فضل، فهذه القوى العامة غير المشخصة هي التي آلت فيما بعد إلي الآلهة كما نعرفهم.

فإذا سلمنا مع دور كيم بأن فكرة الله ترجع إلي فكرة المقدس العام وأنا كما نتصورها فكرة مركبة مشتقة من غيرها، فيبقى أن نسأل من أين للإنسان بذا التصور عن

القوة المقدسة الأولي وعلى هذاالسؤال يجيب دوركيم بأنا تأتي من التمع وتتكون وتنمو فيه، و يشرح ذلك فيقول أنه في الأعياد والاجتماعات والاحتفالات العامة حيث يلتقـي الفرد ببقية الموع ويشاركهم فيما يدعو إليه الحفل من غرض ويتأثر وإيـاهم بـشعور واحد، يجد الفرد إحساساً بقوة جديدة يتغلغل فيه ويسمو به ويمده بحياة لا يـستطيع أن يحياها بمفرده. فإذا كان بصدد التفكير والتأمل في هذه القوة الجديدة عجز عن أن يردهـا إلي أصلها الحقيقي وهو التمع وروح الجماعة فيرجعها عقله البسيط إلي قوة غريبة خفية فوق ما يتناوله عقله من النظام الطبيعي.

ومما أثبت لدور كيم أن هذه القوة المقدسة هي التمع بالذات أمران أنـا تحـوز الصفات التي يتصف با التمع في نظره فهي مثله تسيطر على نفس الفرد من مكانة سامية تعلو على الجميع، ومع ذلك يشعر با كل فرد كما لو كانت تنبع من صميم نفسه وقلبه، وهي قوة ليست كالأشياء الطبيعية لأنه يضيف إليها صفات إنسانية ويضعها موضع التجلة والاحترام.

والأمر الثاني الذي يدل على انتهاء فكرة الله إلي التمع أن التطور الاجتماعي يفترق دائماً أبداً بتطور في فكرة الله لا تخفي أوجه التشابه والتقابل بينهما.

ففكرة القوة غير المحدودة الغامضة توجد في التمع البدائي حيث تنعـدم شخـصية الفرد وتمتزج بشخصية الموع فلا يشعر بضميره الفردي متميزاً واضحاً مستقلاً وعندما يأخذ هذا التمع في الترقي ويبدأ انقسامه الأول إلي قبائل مختلفة يوجد في كل قبيلة مقدس خاص با تختاره تارة في نوع من النبات أو نوع من الحيوان تعتقد بحلول ألمانا فيه وهو ما يعرف بطوطم القبيلة. فلما أن تقدم الزمن بذه القبائل واجتمعت باختيارهـا أو بقهـر بعضها للبعض الآخر وتألفت فيها سلطة واحد لها حق السيطرة على الجميع وجد المانـا العام المطلق بجانب الآلهة المبعثرة المتميزة واقترن وجوده بوجود رئيس القبيلة الأعظم.

نثبت بذلك عند الاجتماعيين أن الله فكرة مركبة خضعت لتطور طويل على مـر السنين وأنا ترجع إلي أفكار أبسط منها منشئوها التمع بالذات.

ووجه الاعتراض على الرأي الاجتماعي أن الدين يحوي من الأفكار الـسامية مـا يتجاوز بسموه حدود التمعات مهما كان رقيها فأي مجتمع من التمعات يوحي بأفكار

هي مهما ترتقي وتتسامي تحوم حول شخصه ومنفعته، فهي دائماً مشبعة بالأنانية وحـب الذات وكره الغير والرغبة في الاستيلاء والغلبة، أما الإخاء والعدالـة والكمـال فهـي تصورات لا يتأتى للمجتمع أن يبديها ولابد لها من منبع سواه سواء أكان في السماء أم في جوهر النفس البشرية.

ويوجد سبيل آخر للاهتداء إلي الله وهو التصوف والحال هنا يختلف عمـا أسـلفنا وصفه في عرض وجهتي نظر الفلاسفة وعلم الاجتماع فالله هنا ليس فكرة مجردة بـسيطة نبلغها بالمنطق والفكر ولا هو فكرة مركبة يهدي إليها استقراء أحوال التمعات البـشرية ولكنه ماهية عليا حافلة بالحياة نشعر با في أعماق نفوسنا ونسعد بذا الشعور بعد جهد جهيد تتكلفه النفس في التأمل والتسامي.

ومما يلاحظ على المذاهب الصوفية أن أهلها يعنون بتلك التجربة النفسية العليا الـتي تجذبم إليها جذباً عنيفاً يجعلهم قليلي الاحتفال بالتقاليد الدينية المحفوظة والطقوس الشكلية والكتب والتعاليم لأنم يجدون جميع هذا بالإضافة إلي ما يشعرون بارداً لا حياة فيه، ولهذا وجد دائماً بين المذاهب الصوفية والسنية تنافر وجفاء.

ولكن لا محيد للصوفية عن التأثر بالدين السائد لأن الصوفي كغيره ينشأ على ديـن يتأثر به شطرا كبيراً من حياته فمهما تفاني في الجوهر فلا يمكن أن ينسي – نسياناً تاماً _ الصور والإشكال. فهنا يمكن القول بأن الصوفية كالفلسفة لا تنجو مـن أثـر التمـع وروحه.

وبذا ينتهي تصور الله الذي وجدناه في بعض التمعات قوة عامة غير محـدودة ولا شخصية إلى اله فردي شخصي حي يتفجر وحية من قلب المتصوف العارف.

وقد وجدت الصوفية تأييداً من بعض الفلاسفة أنفسهم فباسكال يقرر أنه توجـد ثلاث وسائل للاعتقاد: العقل والتقليد والإلهام، و الإلهام وحده هو الذي يهـدينا إلى الله، وأما العقل والتقليد فيمهدان ويساعدان ويتعذر أن يوفيا بالغرض وحـدهما، فـالبراهين الميتافيزيقية تمتنع على غير كبار المفكرين وحتى هؤلاء لا يدوم تأثيرهـا فـيهم إلا حـين يتأملونا، ولا يأمنون الزيغ عند انصراف عقولهم عنها إلى غيرها مما يـسترعى الـتفكير

والتأمل أما الشعور بالله شعوراً أبدياً فيتحقق بالسمو إليه والاتـصال بذاتـه والامتـزاج بجوهره.

وفلسفة برجسون تعتبر امتداداً لفلسفة باسكال وتتصل عن قرب بالصوفية

وبرجسون يتكلم في فلسفته عن وسط تنطلق منه العوالم كالأسهم النارية، وهو ليس شيئا جامداً ولكنه حياة مستمرة منطلقة حرة. هذا الوسط هو الله وهو خالق حر خلـق المادة والحياة وخلق الإنسان، وقد وجدت في الإنسان قوة مبدعة من شأنا أن تتم عمـل الله في الخلق والإبداع فكان قوة الله المبدعة لا تنحصر في ذاته ولكنها تمتد إلي المخلوقات الراقية.

والآن فلنسأل أنفسنا هذا السؤال: ما الذي تتركه في النفس جميع هذه الآراء مـن الأثر ؟

أن البراهين العقلية تمهيد حسن ولفت قيم ولكنها لا تبلغ بالإنسان درجة الاعتقـاد الحقيقي، وأني لأجد نفسي بعد الإطلاع عليها حيث كنت من القلق والاضطراب.

والرأي الصوفي يقف الإنسان حياله مكتوف اليدين لأنه حياة لا يشعر با إلا مـن يحياها، ولكن تجربته تشمل الحياة بأسرها وهي أعز من أن يجازف با الإنسان.

على أن الله موجود في صميم القلب بمعنى آخر إذ توجد عاطفة التدين في الـنفس الإنسانية وهي شعور أنسأني جوهرة السمو ومظهره آيات التقديس والجلال التي نعبـدها في النفس والطبيعة وقد يغالى الاجتماعيون عندما يردون هذا الشعور إلى التمع كما قـد يخدع الفلاسفة عندما يتصورونه أفكارا مجردة قوامها المنطق.

نعم أن الله الذي تعرفنا به الكتب المقدسة فوق كل برهان أو دليل ولا حيلة للانسأن في الإيمان به أو الإنكار له ولكن يبقى لنا إيماننا الطبيعي الذي به نقدس ونفيد كل جليل وجميل في النفس والكون.